بعض التداعيات المحقّقة للعدوان على غزة

■ حميدي العبدالله

بدأت منذ الآن تظهر تداعيات للعدوان «الإسرائيلي» على قطاع غزة. والتداعيات هذه كانت وراء تردّد الكيان الصهيوني في شنّ عدوان جديد، وتردّد الولايات المتحدة في إعطاء الضوء الأخضر لبدء هذا العدوان، ومن أبرز هذه التداعيات المحقّقة:

أوّلاً، إعادة القضيّة الفلسطينية لتكون من جديد في صدر الاهتمامات العربية والدولية والإقليمية، على عكس ما كان يراهن عليه العدوان الصهيوني والحكومات الغربية، إذ كان الرهان على أن ما يحصل في الدول العربية من اضطرابات وحروب خلق صراعات ثانوية كفيلة بإسدالٍ ستار النسيان على القضية الفلسطينية.

ثانياً، بدء خروج التظاهرات والمسيرات في شوارع عربية وإقليمية ودولية منددة بالعدوان «الإسرائيلي»، وإذا كانت دول الطوق المحيطة بفلسطين لم تشهد حتى الآن خروج تظاهرات حاشدة فلأنها أكثر المناطق عرضة للفتن التي أشعلت نارها منذ عام 2011، إذ تتعرض سورية لحرب عدوانية معاقبة لها على وقوفها إلى جانب المقاومة، والعراق يعيش صراعات تمنعه من التفرغ لتقديم أي دعم فاعل إلى القضيّة الفلسطينية، ومصر حيث تسير التظاهرات ضد الدولة المصرية بدلاً من استنكار العدوان على غزة، فإن هذا الواقع لم يمنع خروج تظاهرات حاشدة في اليمن رغم جراحه، وتونس رغم حالة عدم الاستقرار، وموريتانيا وغيرها من البلدان العربية والإسلامية. وخرجت تظاهرات في فنزويلا ولندن، ورد الفعل الشعبي ضد هذا العدوان رغم أنه لا يزال متواضعاً إلاّ أنه يؤشّر إلى عودة الحيوية إلى الشارع في مواجهة العدو والخروج من دائرة التيه إذ ضربت الفتنة العالم العربي منذ عام 2006 للقضاء على هذه الحيوية. وعادت شعارات التنديد بالغرب وبالسياسة الأميركية، وذهبت أدراج الريح محاولاتٍ تحويل أميركا إلى صديق للشعوب وتحديداً للشعب العربي.

ثالثاً، أثار العدوان على غزة سجالاً فقهياً حاداً داخل الحركات الإسلامية حول العدوان والموقف منه، فالغالبية، إن لم نقل جميع الحركات الإسلامية، لا تمثل لديها القضية الفلسطينية أدنى أهمية وتكتفي بالعمل للوصول إلى السلطة، ولا أدلّة على هذا السجال سوى محاولات بعث بعض فتاوى ابن تيمية حول شرعية الجهاد على أرض إسلامية واقعة تحت الاحتلال الأجنبي. ورغم أن البعض من الحركات الإسلامية يشكك في شرعية نجدة غزة والوقوف إلى جانبها، علماً أنها أرض مسلمين وشعبها مسلم وخرجت على إطار الاحتلال في غزة، إلا أن هذا المنطق يبدو أنه آخذ التهاوي أمام بشاعة جرائم العدو الصهيوني ضد الشعب الفلسطيني المسلم.

رابعاً، «القبة الحديد» التي حصل الرهان عليها كثيراً من قبل العدو لكسر معادلة توازن الرعب، لم تثبت حتى الآن فاعلية تذكر، فهي صدّت الصواريخ بنسبة تتراوح بين 28 و30 في المئة (إذا صدّقنا المصادر «الإسرائيلية») ولم توفر الحماية الكاملة، وليس أدلّ على ذلك من الحاجة إلى شن عدوان بري على غزة لوقف تساقط الصواريخ على المستعمرات والمدن الصهيونية.

إنها بعض التداعيات المحققة حتى الآن، وليست بالتأكيد التداعيات والنتائج كلّها. وثمة توقع الكثير مع استمرار العدوان واستمرار الردّ المقاوم الصلب عليه.

«دولة داعش»... «خلافة» الاستنزاف...!

■ محمد ح. الحاج

الحروب الكبرى لم تحصل مصادفة. قامت وتقوم وستقوم بناء على تخطيط وتصميم مسبقين، ولأهداف تختلط بين السيطرة على الثروات والنفوذ والسيطرة على الآخر، أما وسائلها فكانت الخلافات الدينية والمذهبية والعرقية. ومن خلال استعراض التاريخ ومذكرات قادة من جميع أنحاء العالم، نجد أنّ القاسم المشترك في التخطيط لمعظم الحروب كان المحافل السرية لحكومات الظلّ المعروفة بالماسونية والتي يسيطر عليها اليهود منذ بداية القرن الثامن عشر، واستثمرت تلك الحروب كلّها لمصلحتهم باعتبارهم الرابح الأكبر، رغم أنهم أصغر أقلية في العالم عرقياً ودينياً وحضارياً فهم ليسوا من عرق معروف أو محدود، وأتباع ديانتهم شذرات من مختلف الأعراق، ولم يشكلوا حضارة بحدّ ذاتهم على مرّ التاريخ بل كانوا على هامش الحضارات بدءاً بالبابلية والفرعونية إلى حضارات الشرق الأخرى، وصولاً إلى الحضارة العربية في الأندلس، في حين كانت تغرق أوروبا في ظلمات التخلف وسيطرة الدولة الدينية.

لم تنكر الصهيو – ماسونية العالمية دورها الرئيسي في إسقاط القيصرية الأرثوذكسية في روسيا، وأنها مَن أوحت النظرية الماركسية، وأفادت من نتائج الحرب العالمية الأولى التي كان سببها

> **المشروع الذي استهدف وجود الدولة السورية لم يكتب له النجاح وهذا الفشل رتب على القوى المعادية الانتقال إلى خطة احتياطية هي مشروع التقسيم الجاهز لمكوّنات شعب المنطقة**

الثورة البلشفية أو السبب الأساس في قيامها، عندما سيطرت على السياسة الخارجية البريطانية مالياً واقتصادياً وإعلامياً. كذلك حصل على هامش الحرب العالمية الثانية فكسبت تعاطفاً دولياً بعدما أطلقت عليها محارق النازية، وكانت لغلاة الصهاينة اليد الطولى فيها تمهيداً لإقامة الدولة اليهودية على أشلاء الشعب الفلسطيني.

إذا كانت الحرب العالمية الأولى قامت لاسترداد القيصرية، فإنّ الحرب العالمية الثانية قامت لمكافحة النازية ومحورها، وفي كلتا الحالتين جنى اليهود الصهاينة ومن معهم ثمار الحربين، وكان مخططاً لذلك بدقة منذ عام 1890. بيد أنّ الخطط لم تتوقف بعد ذلك واستمرّ تطوّرها طبقاً للظروف السائدة التي أمكن توجيه حوادثها ضمن معيار المصالح ذاتها، وانطبق ذلك على كثير من الحروب المحلية في المنطقة السورية (الشرق الأدنى) والجوار العربي عامة.

حروب التوسع الصهيونية لم تتوقف، واعتمدت على دعم غربي واسع وتواطؤ عربي كبير، ومن نتائجها نكسات وهزائم لحقت بدول المنطقة ومعها مصر، إلى أن تحقق مشروع العلاقات المكشوفة مع الصهيونية لإنهاء القضية الفلسطنية وإعلان الدولة اليهودية بعد تحييد مصر، كبرى دول المواجهة، ولم يبقَ على الساحة أمام تحقيق المشروع إلاّ سورية، وهي الدولة الأساس الواقفة في وجه تنفيذه النهائي. ولأنّ الوسائل المتعدّدة التي انتهجها النظام العالمي – الصهيو – ماسوني لم تنجح في إخضاع الدولة السورية والحدّ من ثقافة المقاومة وتطوّرها في وجه الكيان الصهيوني، كان لا بدّ من تطوير أسس الحرب ومناهجها ضدّ سورية ومن يحالفها وضدّ المقاومة وما تمثله من عقبة على الطريق، وهكذا بدأ التحريض الديني – المذهبي لنقل الحرب إلى الداخل وبأيد داخلية مدعومة من الخارج ومموّلة عربياً، واستغلّت عوامل داخلية لا تخلو منها دولة في العالم. الفرق الوحيد أنّ الإثارة الدينية – المذهبية تبلغ ذروتها في المنطقة لأسباب متعدّدة أهمّها وقف العمل بالعقل والانسياق وراء العاطفة والغريزة، وهذا أمر مدروس. وعلى هذا الأساس أطلقت الشرارة الأولى قبل سنوات مرتكزة على جذور زرعت أو نمّيت بعيد الاحتلال الصهيو – ماسوني للعراق، وبأيد غربية وعربية. وما كان للخلاف المذهبي هذا الأثر في الأوساط العراقية بسبب الاختلاط الواسع وتجاوز هذا الأمر ضمن العشائر والعائلات، غير أن الخبث الاستخباري الموسادي والغربي أدّى دوره في تأجيج الفتنة وتحضير تعبئة نفسية في الساحات المجاورة (الشام ولبنان والأردن وفلسطين) ويعلم الجميع مجريات الأمور في هذه الساحات جميعها، ولا حاجة إلى تعداد وتكرار ما كان يحصل.

المشروع الذي استهدف وجود الدولة السورية أساساً لم يكتب له النجاح لسببين، الأول صمود الدولة السورية مدعومة من أغلبية شعبية ساحقة معتمدة على اقتصاد غير مدين ومخزون من العملة الصعبة، والثاني موقف دولي حليف ومساند وداعم لم يسمح من منطلق مصالحه أيضاً بهذا السقوط. هذا الفشل رتب على القوى المعادية الانتقال إلى خطة احتياطية هي مشروع التقسيم الجاهز لمكوّنات شعب المنطقة، وهو المشروع الذي يخدم إقامة الدولة على أساس ديني على الأرض الفلسطينية، إضافة إلى عملية التوطين التي تعتبر الجزء الأهم في تصفية القضية الفلسطينية. ومن هنا كان الموقف الصهيوني المعترض على المصالحة الفلسطينية، وتشجيع الجهات التي تأتمر قياداتها عبر الغرب بمواصلة المشاركة في الحرب على الشام. وعلى سبيل المثال مشاركة حماس في الحرب على القوى الفلسطينية ضمن المخيّمات السورية والتزامها مواقف معلنة ضدّ «النظام السوري» رغم عدم تخلّيه عن موقفه الوطني في دعم الحق الفلسطيني واستمرار إمداد المقاومة بالسلاح النوعي، وتصليب الموقف الشعبي الفلسطيني عبر القوافل التي لم تنقطع ولم تتوقف، وأيضاً محاولة جمع شتات التنظيمات الداخلية في الشام على مسمّياتها، وهذا فشل بالمطلق، إذ أنها بسبب الخلافات الجذرية بينها ليست قابلة أو مهيّأة للتوحّد تحت قيادة واحدة، وذاك ما ظهر جلياً عبر الصراعات الدامية التي تخوضها لأسبابها الذاتية لا الوطنية، والأساس في هذا التنافر هو العامل البشري الخارجي وتعدّد الارتباطات واختلاف المشاريع. وهكذا يطفو على السطح فصيل «داعش» الذي أثار المزيد من إشارات الاستفهام رغم وضوح أهدافه المعلنة – التي يؤمن بها ربما – وهي تتناقض جذرياً مع المشروع الغربي لكنها تخدمه على أوسع نطاق إذ تؤدي الغرض المطلوب من إقامة دولة أو أكثر على قواعد دينية – مذهبية، وبالتالي تبرّر إعلان الدولة اليهودية النقية التي لا يمكن أن تقوم مع وجود أغلبية شعبية رافضة في الجوار، أو دول تمانع المشروع وتعارضه وترفض تصفية القضية.

من غير المعقول أنّ تنظيماً من طراز «داعش» يمكنه السيطرة والانتشار بهذه السرعة، من دون عتاد متطور ومعلومات استخبارية دقيقة، وتعاون خلايا مزروعة في المناطق التي دخلها وقد يسّرت له مثل هذا الدخول. ومن غير المستبعد أنّ الاستخبارات المركزية الأميركية بالتعاون مع الموساد الصهيوني هي التي أمدّت «داعش» بالسلاح النوعي المتطوّر ووسائل الاتصال غير القابلة للكشف، والمعلومات الدقيقة الاستخبارية التي تسبق دخول أيّ منطقة، خاصة على مساحة تعادل نصف مساحة الدولة العراقية وامتداد هذه المنطقة في بادية الشام ومن ضمنها محافظتان كبيرتان (دير الزور والرقة)، ولكن لماذا؟

ليس من المصلحة الأميركية قيام دولة معادية في المنطقة للمصالح الأميركية، أما في حالة تقاطع هذه المصالح وظهور أنّ النتائج النهائية تخدم الهدف الاستراتيجي المنشود، فإنّ الولايات المتحدة تعلن عن معارضتها لـ«داعش» وتعلن الحرب عليها على الملأ وتستمرّ اللعبة مسرحياً في عملية إطالة عمرها، فهي تستنزف طاقات دولتين كبيرتين في المنطقة (سورية والعراق) وتشتّت جهود جيشين على ساحة المنطقة في مواجهة الكيان العدو، وهكذا تكون دولة الخلافة «الداعشية» أداة استنزاف فاعلة لا بدّ من أن تؤدي إلى إضعاف القدرة

> **من غير المستبعد أنّ تكون الاستخبارات المركزية الأميركية بالتعاون مع الموساد هي التي أمدّت «داعش» بالسلاح النوعي المتطوّر ووسائل الاتصال غير القابلة للكشف**

العسكرية للجيشين العراقي (الذي حُلّ أساساً باليد الأميركية وترتيبه من جديد على قواعد تخدم التقسيم) والسوري الذي صمد وأثبت تفوّقاً لا مثيل له عبر تاريخ الحروب الداخلية المدعومة خارجياً رغم جميع الطفيليات التي نمت على جوانبه، لكنه حافظ على جوهر عقيدته القتالية – القومية.

تحت ستارة الفوضى التي تعمّ المنطقة وظلال المعارك دخاناً وغباراً، تتحرك الآلة الصهيونية لقتل المزيد من الفلسطينيين وتهجير آخرين، في حين تنام الأنظمة العربية على حرير الديمقراطية الأميركية، نوماً عميقاً أقرب إلى نومة أهل الكهف، وقد وضعوا في آذانهم سدادات محكمة – غربية الصنع، أو أنّ آذانهم أصابها وقر أصيل فلا تسمع صرخات أطفال غزة ولا نساءها وشيوخها، وتتلهّى فضائياتهم وإعلامهم بالمونديال ومسيرات الأعلام الملوّنة الغريبة، وإن ذكر بعض هذا الإعلام الخبر فعلى النحو الآتي: «الحرب على إسرائيل»، كأنّ الفلسطيني هو المعتدي المجرم وليس الضحية التي تتلقى أحدث القذائف والقنابل والصواريخ وتحلّق في أجوائه أحدث أنواع الطائرات الأميركية المزوّدة أحدث التقنيات في العصر الحديث للقضاء عليه، وهو الذي يملك البندقية وأعداداً من الصواريخ البدائية، لكن الأهمّ أنه يملك الإرادة على الصمود... والانتصار.

صواريخ المقاومة تخلق معادلات جديدة

■ راسم عبيدات - القدس المحتلة

واضح أن الصواريخ «العبثية»، بلغة من رهنوا أنفسهم لخيار التفاوض والاستجداء والإستنعاج، تخلق معادلات جديدة وتثبت يوماً فآخر أنها صواريخ موجهة وتحمل أكثر من رسالة سياسية، وكلّ أبناء شعبنا على اختلاف منابته ومشاربه السياسية والفكرية، فتح قبل حماسٍ، والجبهة الشعبية قبل الجهاد، يشعرون بأن تلك الصواريخ تعيد إليهم جزءاً من كرامتهم، وبأن هناك انتقالاً من دائرة القول والشعار و«الجعجعة» والتهديدات الفارغة الى دائرة العمل والتنفيذ والوعد الصادق، فرغم التهديدات التي وجهتها كتائب القسام إلى حكومة الاحتلال وأركان قيادته السبت الفائت بأنها ستضرب «تل أبيب»، ورغم صغر مساحة قطاع غزة، ووجود الطيران الحربي والطائرات من دون طيار في سمائها، والحصار البري والبحري، ووضع جميع أجهزة الإستشعار والمراقبة الإلكترونية والبشرية لرصد تلك الصواريخ وأماكن انطلاقها، إلاّ أن القسام نجحت في قصف «تل أبيب» بعشرة صواريخ من طراز «جعبري 80»، ومجرد الإعلان بحد ذاته شكل رسالة تحد غير مسبوقة لعدو تعوّد أن يكون هو المبادر وصاحب اليد الطولى في التهديد والوعيد والقصف والاغتيال والتدمير، من دون أن يتلقى أي صفعة أو رد. ونعرف جميعاً أن طائرات الاحتلال وقواته قصفت أكثر من عاصمة ودولة عربية: السودان مرات عدة وتونس وبغداد ودمشق وبيروت وغيرها. في السودان دمروا شحنات أسلحة قيل إنها متجهة إلى غزة، في تونس اغتالوا الشهيد أبو جهاد وفي بغداد دمروا المفاعل النووي العراقي، وفي دمشق دمروا وقصفوا أكثر من قاعدة عسكرية ومركز علمي وشحنات أسلحة قيل إنها استراتيجية ذاهبة إلى حزب الله، وفي بيروت عربدوا واغتالوا أكثر من قائد فلسطيني ولبناني ولم تجرؤ أي عاصمة عربية على الرد، وعندما تجرأ الرئيس الشهيد صدام أثناء العدوان الأطلسي على العراق قبل احتلاله، كان عقابه احتلال العراق وتدميره واعتقال الرئيس صدام حسين الذي أعدم لاحقاً، في رسالة واضحة إلى جميع الزعماء العرب بأن من يجرؤ على ضرب «تل ابيب» أو دولة الكيان الغاصب سيكون مصيره مثل مصير الرئيس صدام حسين، وأنّ لا حصانة لأي زعيم أو قائد عربي لمجرّد أن يفكر في قصف «تل أبيب» او أي مدينة «إسرائيلية»، ولتبدأ المعادلات والتحوّلات بعد الحرب العدوانية التي شنتها «إسرائيل» على لبنان في تموز 2006، إذ قصف حزب الله أكثر من مدينة «إسرائيلية» بالصواريخ، وهذا مؤشر على أن هيبة الردع «الإسرائيلي» ثلمت، وبأن الجيش الذي لا يغلب بضع مئات من المقاتلين مُرّغ أنفه في الوحل، وبأن بيروت لم تبق ساحة مستباحة لطائرات «إسرائيل» وقواتها، بل نشأت قوة توازن للردع والرعب بات يحسب لها العدو ألف حساب، وهذه المعادلة كان الاحتلال حريصا على كسرها وعدم تعميمها، وكانت حربه العدوانية على شعبنا في قطاع غزة أواخر 2008 وفي تشرين الثاني 2012، لكنه فشل في كسر المعادلة والتوازن، ليكتشف أن غزة المحاصرة صامدة بمقاومتها وشعبها، أكثر من مدينة فلسطينية محتلة، بما فيها القدس المحتلة و«تل أبيب»، ولذلك كان يشدد في كل هدنة على تجريد المقاومة من أسلحتها وتحديدا الصواريخ، ولكنه يفشل في ذلك، ولذلك كان يتحين الفرص ويعمل جاهداً لتوجيه ضربة قاصمة إلى المقاومة الفلسطينية تضمن له الأمن على الحدود الجنوبية لعشرات السنين، ويشرع في تنفيذ مشروع سياسي يصفي قضيتنا وحقوقنا الوطنية في ظل حالة ضعف فلسطيني وحصار للمقاومة والقطاع وانهيار عربي غير مسبوق. شعر الاحتلال بأن الفرصة مؤاتية لتنفيذ مشروعه والوصول إلى هدف «صفر صواريخ». الاحتلال المتغطرس والعنجهي يذل شعبنا ويعامله باحتقار وباستعلاء، ورأينا أكثر من مرة كيف أذلّ قوات الأمن الوطني، ليس في حادثة سجن أريحا فحسب لدى اختطاف سعدات ورفاقه واللواء الشوبكي، بل في كل مرة يقتحم فيها مناطق «ألف» ليعتقل أو يغتال. وكان أفراد الأمن الوطني الفلسطيني يشعرون بالذل والعار لكونهم غير قادرين على توفير الحماية لشعبهم. وبحربه العدوانية الجديدة على قطاع غزة، مرتكباً جرائم حرب وإبادة جماعية ومجازر ضد الإنسانية تطول أطفالاً ونساء وحتى من ذوي الاحتياجات الخاصة، لم يفلح العدو في كسر إرادة المقاومة أو عزلها عن بيئتها الحاضنة، أو منعها من إطلاق الصواريخ، بل وسعت المقاومة دائرة ومدى قصفها وبعدد أكبر ونوعيات أكثر تطوراً لمدن لم تصلها صواريخ المقاومة مثل حيفا والخضيرة وغيرها، ولتبلغ الأمور ذروتها بإعلان المقاومة عن ساعة محددة لقصف «تل أبيب» بالصواريخ، وتنفذ وعدها وتقصف بالفعل، وفي هذا القصف أكثر من رسالة للعدو، فهي تقول له إن زمن الذل والخنوع ولّى، وزمن تلقي الضربات من دون الردّ عليها ولّى أيضاً، وهي رسالة ترمي إلى زعزعة جبهة العدو الداخلية وكسرها، إذ رأينا كيف تملّك الخوف والرعب الصهاينة المحتلين فاختبأوا في الملاجئ. وهذه رسالة أخرى سياسية بأن أي تهدئة او هدنة جديدة لن تقوم على أساس الشروط السابقة بل يجب رفع الحصار عن القطاع وفتح المعابر.

صواريخ المقاومة وتهديداتها العلنية وغير المسبوقة بقصفٍ «تل أبيب» وغيرها وتنفيذ التهديد، تعيد إلى شعبنا وإلى قوات الأمن الوطني شيئاً من عزتهم وكرامتهم المسلوبة، فالاحتلال بات يدرك جيداً أن الواقع تغيّر والمعادلات تغيّرت. لن يعود الوضع الى ما كان عليه بعد جريمة خطف وتعذيب وحرق الشهيد أبو خضير، ولا بعد هبات شعبنا في الداخل الفلسطيني48– – ولا بعد قصف «تل أبيب» وحيفا واللد بصواريخ المقاومة... هي تعيد روح المقاومة والفعل لشعبنا وتسقط ورقة التوت عن سائر المتآمرين ضد شعبنا وتطوي صفحة المنهارين والمتخاذلين، وتؤكد على أن نهج المقاومة وخيارها ينتصر بتوافر الإرادة، فهي تشكل عامل ردع وتوازن رعب مع العدو رغم الفرق النوعي بين ما يمتلكه العدو من ترسانه هائلة من الأسلحة، وإمكانيات المقاومة المتواضعة، وبالتالي فإن هذه الصواريخ تشكل عامل حماية وشبكة أمان لشعبنا من الاعتداءات المتكررة عليه من قبل حكومة الاحتلال المتغطرسة.

هذا النموذج انتصار في الجانب المعنوي أولاً لمقاومتنا وشعبنا متلاحمين جنباً الى جنب، حماس والجهاد والجبهتان الشعبية والديمقراطية وفتح والقيادة العامة وجميع فصائل العمل الوطني والإسلامي.

«القاعدة» و فروعها... خطأ في التصويب وفشل في التبليغ

■ فؤاد عيتاني

بات المواطن اللبناني وأهل الإقليم في المشرق العربي عامة ينتظرون يومياً بمَ سيطلّ الإرهاب عليهم! فبعد الحوادث المتنقلة من البقاع الى بيروت، وبالعكس، وبعد إصرار البعض في الشمال على رفع الرايات السود المساندة لفرق الإرهاب، وتصاعد لهجة التهديدات من قادة «النصرة» و«القاعدة» و«داعش»، وتكرار بلاغات التنبيهات من أهل الأمن والسياسة، أضحى القلق والخوف جزءاً من العادات اللبنانية كغيرها من التي يمارسها أهل لبنان والمشرق الكبير... فيقول أحدهم على سبيل المثال وهو يعلل الخطرالداهم ويخفف منه لحظة مهاجمته أحد فروع «القاعدة» كمين «الماسورة» الذي قضى خلاله في سيناء 16 من الضباط والجنود المصريين، ويصرح المسؤولون المصريون بعد ذلك بأن القضاء على فلول الإرهاب في هذه المنطقة قد يستدعي شهوراً أخرى، فحين يتكرر رفع الرايات السود منذ بداية «الثورات» وترفع صور زعيم «القاعدة» أسامة بن لادن مرات عديدة، وتكون لدينا ثلاث جماعات تتسمى باسم «أنصار الشريعة» تتبنى السلفية الجهادية وفكر «القاعدة» وتنشط في عدد من الدول، يغدو السؤال عن فرص «القاعدة» في دول «الربيع العربي» حاملاً بلا شك شرعية أعمق وأكبر من مجرد التنافسية أو الاستقطاب السياسي السائد في دول «الربيع العربي» بين الصعود الإسلامي أو الشتات المدني!

أنصار الشريعة وزعماؤها

في الدراسة التي كتبها الخبير في الحركات الإسلامية هاني نسيرة، يتزعم «أنصار الشريعة» في مصر الشيخ الجهادي السابق أحمد عشوش، أحد أبرز الذين رفضوا مراجعات الدكتور فضل منظر «القاعدة» وجماعات الجهاد، والذي أفتى مؤخراً في 17 أيلول 2013 بقتل جميع ممثلي الفيلم المسيء إلى النبي محمد (ص) كما أخرج عدداً من الكتب والرسائل في نقد الممارسة «الإخوانية» والسلفية بعد الثورة في كتيب حمل عنوان «الحصاد المر الإخوان المسلمون والسلفيون بعد الثورة» متماهياً مع كتاب زعيم «القاعدة» أيمن الظواهري «الحصاد المر ... الإخوان المسلمون في سبعين عاماً» وإن استخدم المقولات والحجج والإسنادات نفسها، وإن تميز كتاب الظواهري باتساع مراجعه وفضاءاته وحجمه، حتى عاد فيه إلى المؤرخ اليساري الدكتور رفعت السعيد وسلسلة انتقاداته لجماعة «الإخوان المسلمين» أكثر من مرة، بينما يتزعمها في تونس سيف الله بن حسن المشهور بالشيخ أبي عياض الذي حوصر في جامع الفتح في تونس بعد تداعيات الفيلم المسيء إلى النبي محمد (ص)، في 17 أيلول الفائت أيضاً!

رغم العديد من الحوادث الليبية التي تكرّرت فيها رايات أنصار الشريعة، بدءاً من مهاجمة السفارة التونسية في ليبيا، إلى ردّ فعل على مواقف الحكومة التونسية من نظرائهم في تونس، إلى الهجوم الأخير على القنصلية الأميركية في بنغازي، فقتل السفير الأميركي بطريقة بشعة في 11 أيلول الفائت وما أعلنته «القاعدة» من أن هذا القتل كان انتقاما لمقتل زعيم «القاعدة» أبي يحيي الليبي الذي قتل في حزيران الفائت، ورغم البيانات المتناقضة حول تبني العملية وعدم تبنيها من قبل «أنصار الشريعة» الليبية إلاّ أنّ وجودها ومرجعيتها السلفية الجهادية «القاعدية» حاضرة وينبغي كذلك أن تكون بعيدة عن المزايدة والتنافسية السياسية.

لا شك في أن التظاهرات التي حدثت في الدول الثلاث وغيرها كانت تتقد من سخونة العواطف الدينية الإسلامية والغضب من الإساءة إلى نبي الإسلام عبر شباب متدين وغير مؤدلج يمثل أرضاً خصبة للتجنيد الجهادي، ووجد ضالته في تأييد أكثر الاتجاهات أو الشخصيات الدينية تصلباً في انتخابات الرئاسة المصرية الماضية مثلاً، قبل استبعاده، وذاك ما تكرر في مرات سابقة مع حوادث مشابهة كان آخرها ما حدث في أزمة الرسوم الكاريكاتورية سنة 2004. لكن ما حدث في هذه التظاهرات من رفع صور زعيم «القاعدة» برفقة راياتها السود وهتافاتها وتنظيمها في مناخ سياسي واجتماعي لا تزال دولة ما بعد الثورات مأزومة تسترد عافيتها وهيبتها، وهذه المقدمات أمامنا اليوم في طرابلس وشمال لبنان.

من أزمة التنظيم إلى نشاط الحالة

حوادث عديدة عام 2011 جاز معها توقع انهيار تنظيم «القاعدة» وشبكته وفروعه، في مقدمها «الثورات العربية» التي أسقطت سلمياً الأنظمة في تونس ومصر، وفي ليبيا التي قتل حاكمها معمر القذافي في 20 تشرين الأول من العام نفسه وتنحى علي عبد الله صالح عن الحكم في 23 كانون الثاني 2012. تتعرض سورية الكيان لأبشع حرب دولية لتفتيتها باسم الإسلام، وها هو العراق يتدحرج الى المسار نفسه.

واجهت «القاعدة» هذا التحدي النظري بسقوط الأنظمة أمام الثورات المدنية الديمقراطية اللاعنفية، عبر الالتفاف عليه، إذ أثبت فشل خيارها بالانقلاب والاستنزاف المسلح الذي استخدمته التنظيمات الجهادية المحلية في مواجهتها، ثم اعتمدته «القاعدة» والجهادية السلفية عامة».

ظن البعض أن هذا التحدي النظري والفكري لـ«القاعدة» قد يكون الضربة القاضية القاصمة على أساس فكرها الانقلاب، خاصة مع توالي الضربات القاتلة لعدد من أبرز رموز قادتها ومنظريها، وكان في مقدمها زعيم «القاعدة» أسامة بن لادن في 2 أيار 2012 وتلاه عطية الله الليبي في 2011 ثم مقتل منظرها الشرعي وقائد العمليات في التنظيم عطية الله الليبي المصراتي في 22 آب 2011، ثم المنظر اليمني أنور العولقي في 1 تشرين الأول 2011، كما تأكدت وفاة أبي يحيي الليبي، الذي رجحت الولايات المتحدة مقتله في حزيران 2012، بعدما أكدها أيمن الظواهري في 11 أيلول 2012، وهو التاريخ نفسه الذي أكدت فيه الحكومة اليمنية مقتل سعيد الشهري نائب زعيم «القاعدة» في جزيرة العرب، وهذا ما لا يمكن الجزم فيه حتى الآن. كما قتل «أمير الصحراء» في تنظيم «القاعدة» في المغرب العربي نبيل الصحراوي المعروف بنبيل الأوراسي.

هذه أزمة التنظيم في «القاعدة» وقيادتها المركزية، لكن ما حمله «الربيع العربي» من وعود كبيرة بيقظة أمة لا تعيش في العالم وحدها، مع فراغات إيدولوجية وأزمات هوية وعدم تحديد لمفهوم الشرعية، هل هو سياسية أو دينية، وما رافقه من التفوّق التنظيمي للقوى الإسلامية عامة مع خطاب لم يخل أثناء التنافسية السياسية والانتخابية من بعض وجوه الجهادية والسلفية الجهادية مثل نماذج حازم أبو اسماعيل وبعض القنوات الدينية وغزوة الصناديق ورفض المواطنة الكاملة لغير المسلمين بل ورفض الديمقراطية من قبل بعض الذين اخترقوا وفازوا في مضمارها من قبل الأحزاب السلفية. هذا الخطاب كله يمثل أسساً متماهية مع خطاب «القاعدة». لكن «القاعدة» واضحة فيه، بينما الآخرون يستخدمونه تكتيكياً أو مرحلياً فحسب.

من جانب آخر، لم تلق «القاعدة» – وتيارات الإسلاميين – بالاً للتحدي النظري الذي طرحته الثورات المدنية الديمقراطية السلمية، بل رأت في انهيار نماذج الدولة الوطنية المشوهة قبل الثورات، نتيجة طبيعية لاستنزافها بالهجمات والنضالات الإسلامية وحدها، كذلك الاستثمار في توجهات الأغلبيات المتدينة وغير المسيّسة، المتعاطفة مع الخطاب الديني فضلاً عن الفشل التنظيمي الذريع للقوى المدنية في المرحلة الأولى من «الربيع العربي».

من نافلة القول التأكيد على هذا التجاهل لمدنية هذه الاحتجاجات والثورات من قبل قادة «القاعدة» أو منظريها، فرغم ما أبداه زعيم التنظيم الراحل أسامة بن لادن من إعجابه بهذه الثورات، قبل مقتله في 2 أيار من العام نفسه، ودعوته أنصاره إلى عدم التدخل في مساراتها كي لا تصبح استخدام فزاعتها من قبل الأنظمة أو القوى الدولية الداعمة لهذه الثورات، كان يلح دوماً على ضرورة أسلمتها كخيار مضمون للجماهير المسلمة، وهذا ما يكاد يتحوّل «الربيع العربي» معه الآن مشروعاً أيديولوجياً لتنظيمات دينية معينة أكثر منه مشروعاً سياسياً لدى هؤلاء.

ففي رسالة بن لادن الى عطية الله الليبي (الذي قتل في 11 آب 2012، وكتبها قبل وفاته بأيام– وهي الوثيقة رقم 10 ضمن الوثائق التي أفرج عنها بعد مقتله– بتاريخ 26 نيسان 2011 وصف الثورات العربية بالحدث العظيم وبأنها «ثورة الأمة ضد الطغاة»، وبأن «الأمة لم تشهد تحركاً بهذا الحجم منذ قرون»، ويوصي مسؤول العمليات في تنظيمه بألاّ يدخل الجهاديون في مواجهات مع الإسلاميين الذين يتوقع بن لادن أن يسيطروا على المشهد السياسي عربياً، ويرى أن من الضروري أن يتأنوا وأن يعتنوا بدور التوجيه عبر الرسائل الإعلامية.

كما وجّه الظواهري في رسائله – عشرة أجزاء – إلى أهل مصر، نصائح للقوى الإسلامية الصاعدة منبّهاً إياهم إلى أن يحافظوا إسلامية الثورة، وأدّت إليها جهود «القاعدة» عبر إجهاد تلك الأنظمة وكذلك حليفتها الولايات المتحدة، والحذر من العلمانيين حلفاء الغرب، وخص بالذكر أسماء مثل الدكتور محمد البرادعي مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية سابقاً، وذكر في رثائه لبن لادن في 9 حزيران، التي ينذرها بالويلات، إذ أنها الآن أمام أمة منتفضة لن ترحم من يواجهها! فتحوّل الأمر من الإشكال النظري وهزيمة فكرة الانقلاب المسلح لـ«القاعدة» إلى اعتبار الثورات انتصاراً لـ«القاعدة» وقوى الإسلاميين عامة! وهكذا فعل عطية الله الليبي المصراتي قبل مقتله في آب من العام نفسه، في حديثه للثورة الليبية وهذا ما فعله أيضاً أنور العولقي قبل مقتله في 1 تشرين الأول من العام نفسه في حديثه إلى «الثورة» اليمنية!

لكن ما تعرّضت له «القاعدة» من ضربات متتالية عقب «الثورات العربية»، خاصة مقتل زعيمها في الثاني من أيار 2011 كانت ضربات تلاحقت لـ«القاعدة» تنظيماً وعلى شبكة فروع تنظيمية في العالم بعد مقتل زعيمها في عدد من بلدان العالم، لكنها لا تزال حالة نشيطة، وهذ ما تأكد في عملية محمد مراح في فرنسا في 12 آذار 2012، أو ما شاهدناه في مقتل السفير الأميركي يوم 11 أيلول في ليبيا إثر ردود الفعل الشعبية والاحتجاجية على فيلم مسيء إلى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم– وهو ما أعلنت «القاعدة» أنها قامت به ثأراً لمقتل أحد قيادييها أبي يحي لليبي، أو رفع الرايات السوداء لـ«القاعدة» وصور الراحل أسامة بن لادن في الاحتجاجات ضد السفارة الأميركية في القاهرة وتونس، وفي تظاهرات عديدة في مختلف بلدان العالم العربي، ما يجعلنا نجزم بأن «القاعدة» حالة تنشط بقوة مع الانفلات الأمني وصعود الإسلاميين وسياسات الهوية ومناخات الانفلات الأمني وضعف هياكل الدولة، مثلما هي حال لبنان اليوم.

قد يكون ثمة تراجع ملحوظ على مستوى القيادة المركزية لـ«القاعدة» المحاصرة في جبال باكستان وأفغانستان، وعلى مستوى بعض الفروع وليس كلّها، ما أثر في حجم العمليات التي تراجعت على مستوى العالم إلى 10283 عملية في العام الفائت، بعدما كانت 11641 في 2010، بحسب المركز الوطني لمكافحة الإرهاب الأميركي. لكنّ ثمة تقدماً على مستوى بعضها، وخاصة في منطقتي الساحل الأفريقي والقرن الأفريقي، عبر جماعات التحقت بها في السنتين الأخيرتين مثل «بوكو حرام» النيجيرية التي تنشط في القرن الأفريقي وحركة «شباب المجاهدين» الصومالية وجماعة «أنصار الله» و«كتيبة الملثمين» اللتين سيطرتا قبل بضعة أشهر على الشمال المالي كله، حين نجحت «القاعدة» مثلاً في مالي في السيطرة على تومبكتو أوائل تموز 2012.

كما أن ثمة حركات أخرى عديدة مرتبطة بها لا تزال تمارس نشاطها مثل «طالبان باكستان» التي نفذت ما لا يقل عن عشرين عملية نوعية في باكستان انتقاماً لمقتل زعيم «القاعدة» حتى الآن، كما أن هناك حركة «لشكر طيبة» الكشميرية المرتبطة كذلك بها، فضلا عن بعض التنظيمات التي لا تزال ناشطة أو عادت إلى نشاطها بقوة في العالم العربي مثل تنظيم «القاعدة» الناشط في العراق في ظل السجال الطائفي الساخن، ومجموعات السلفية الجهادية في سيناء وليبيا وغيرها التي يمثل مناخ الحرية غير المضبوطة والفراغ الأيديولوجي السائد في دول ما بعد الثورات العربية مساحات مفتوحة لنشاطاتها مع أقرباء أيديولوجيين في سدة الحكم.

لذا نرى أن الجهاديين المحتملين وبعض الجماعات المنظمة مثل «أنصار الشريعة» بفروعها الثلاثة، ونجاحات «القاعدة» في بعض المناطق، فضلاً عن زخم الصعود الإسلامي، الذي لم يترافق مع تطورات أو مراجعات عميقة على مستوى الخطاب أو الممارسة، واستمرار أزمة الهوية المستمرة التي تجلت في تداعيات أزمة الفيلم المسيء أو الرسوم المسيئة الجديدة.. هذه الفجوات الثقافية – السياسية – الاجتماعية والقانونية كلّها تمثل فضاءات فرص جديدة لـ«القاعدة» أو التطرف الديني عامة، وليس ذلك فزعاً من حدث التغيير السياسي والديمقراطي، بل هو كشف عن المهمة التي تقع على عاتق القوى المدنية والإسلامية المعتدلة لرأب الصدع والتوافق لأجل النهضة والبناء من دون شعبوية أو استحواذ لن يكون في مصلحة أحد إلاّ الشموليين إجمالاً، أنظمة سياسية أو أصولية دينية! تحاول أن تمدّ لنفسها بيئة حاضنة في شمال لبنان على غرار ما ذكر عن غيرها في البلدان، إلاّ أن البيئة اللبنانية عامة بطبيعتها قادرة على ردم بقعة الشمال في أقرب تحوّل سياسي مقبل، بعد سكون عاصفة «الشرق الأوسط الجديد».